مرآة الإسلام

للدكتور طه حسين

بقلم : عصام العطار

يقف طه حسين هذه الأيام على قمة السبعين(*) من عمره الحافل ، وفي ذروة نضجه الثقافي والفكري .

ولما يقوله الدكتور طه وزنه الكبير ، فهو منذ نشأته ثائر لا يهمه ما تواضع عليه الناس إذا اعتقــد الــصواب في سواه ، وقد أتيح له من الثقافة الأصيلة ، القديمة والحديثة ، ما قلّ أن يتاح لغيره ، وتوفر له من الــصلات الفكريــة والتجارب الشيء الكثير ..

وكتابه الأخير (مرآة الإسلام) يأتي في إبانه ليسهم في إقامة نهضة الإسلام والمسلمين على أساس مكين ، وهــو – كما يقول– (مرآة صادقة للعصر والبيئة اللذين عاش فيهما النبي وأصحابه ، ولنشأة الإسلام وانتشاره قليلاً قليلاً حتى شمل جزيرة العرب كلها) وفي الكتاب أيضاً ملامح من الإسلام وبيان لــبعض مــصطلحاته ، وكــلام في القــرآن والحديث ، وعرض شديد الإيجاز لحال المسلمين العقيدية والتشريعية والسياسية خلال العصور ، وتوجيه إلى طريــق اليقظة الحقيقية والنهضة المثلى .

والدكتور طه حسين قد أملى كتابه هذا ليدعو العرب والمسلمين إلى الرجوع إلى القــرآن الكــريم ، وإلى ســنة الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وإلى سيرة الخلفاء الصالحين فهماً وتأثراً وتطبيقاً واقتداء ، وليعلن إليهم أن طريقهم إلى اليقظة والنهضة أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم ، وأن يأخذوا بأسباب العلم الحديث .

وهو يبين للعرب خاصة أن الإسلام هو الذي وحدهم في الماضي ، وأحدث الانقلاب العميق في حياتهم ، وخرج بهم من نطاقهم الضيق ، وفتح لهم أبواب التحرر والعزة والتقدم (فقد خشعت قلوب العرب للقرآن ؛ نفذ إلى قلوبهم واستأثر بضمائرهم ، وفتح لهم آفاقاً كانت مغلقة أمامهم قبل أن يتلى عليهم ، وحررهم بعد الــرق ، رقّ النفــوس للشهوات ، وطهرهم بعد الرجس ، رجس الخطايا والآثام ، ووحدهم بعد الفرقة ، وأعزّهم بعد الذلة ، وملأ قلوبهم نوراً فانبثوا في الأرض ينشرون نور الله ما وجدوا إلى ذلك سبيلا) .

ويبين لهم أيضاً أن الإسلام هو أساس الوحدة الجديدة التي يحاولونها لا أساس لها سواه فيقول : {وإذا كانت هناك وحدة يحاول العرب أن يعودوا إليها ، ويقيموا عليها أمرهم في الحياة الحديثة كما قامت عليهــا حيــاتهم القديمــة ، فالقرآن هو أساس هذه الوحدة الجديدة كما كان أساساً للوحدة القديمة .

وليقرأ العرب إن شاؤوا قول الله عزَّ وجلَّ في الآية الكريمة من سورة آل عمران :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَـأَلَّفَ بَـيْنَ قُلُـوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُـمْ آيَاتِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣]

فهذه الآية الكريمة التي أنزلت وتلاها النبي صلى الله عليه وسلّم على قوم من العرب كانوا يخرجون من جاهليتهم ويدخلون في الإسلام ، فهم حديثو عهد بالكفر ، وحديثو عهد بالعصبية القديمة ، وحديثو عهـد بتفـرق القبائـل واختصامها واحترابها لأيسر الأمور وأهونها شأناً . هذه الآية الكريمة ما زالت قائمة بعد قريب من أربعة عشر قرناً ، وستظل قائمة . وهذا الأمر للمسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا لم ينقض بانقضاء عهد الخروج مـن الجاهلية ، وإنما هو قائم دائماً ما دام في الأرض مسلمون .. والعرب أجدر الناس أن يفهموه وينفذوه فهو أنزل فيهم، وأنزل في لغتهم ، واتجه إليهم أول ما نزل} .

وهذا الذي يقوله طه بديهي لا مساغ لغيره .. ولكنه مع ذلك يأتي في إبانه ، ويصادف حاجة إليه ، لأن كـثيراً من أعداء العرب قد عملوا –وما يزالون يعملون– على فصل العرب عن القرآن ليعزلوهم عن محور وحدتهم ومعـين قوتهم ..

والدكتور طه حسين في هذا الكتاب يبدو لقارئه مؤمناً كل الإيمان بالإسلام ، وأنه دين منـزل ، وهو بثقافتـه الواسعة ، وذوقه العربي المصفى يرى أن القرآن الكريم بلفظه ونظمه ، وما انطوى عليه من أصول العقيدة والتـشريع والأخلاق ، وبما تضمنه من الحقائق والمعاني ، وبما كان له من الآثار لا يمكن أن يكون إلاّ وحياً من عند الله ، وليس للبشر (سبيل إلى تقليده ولا إلى محاكاته ، فضلاً عن الإتيان بمثل ما يأتي به)

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْـضُهُمْ لِـبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨]

وقد أمكنه هذا من أن يفهم الإسلام فهماً مستقيماً وأن يعرضه عرضاً مستقيماً أيضاً دونما حاجة إلى ما يعمد إليه بعضهم من التحريف والتأويل والمغالطة عندما يغفلون مصدر الإسلام الإلهي ، ويتناولونه على أنه شيء بشري ، فلا يقبلون منه ما لا تسمو قدرة البشر إليه ، ويعملون على نفيه أو إغفاله كما نراهم إذ يعرضـون لـبعض المغيبـات والمعجزات .

والدكتور طه في هذا الكتاب يفهم القرآن والحديث ويدعو إلى فهمها كما فعل أصحاب رسول الله صـــلى الله عليه وسلّم ، وكما فعل السلف الصالح دونما تكلّف ، ويأخذ على المتكلمين تَعَمُّلَهُم ، وإغراقهم في جدل وخلاف لا غناء فيهما ولا فائدة منهما ، وجريهم وراء المتفلسفة اليونان وتأثرهم بهم ، وابتعادهم بذلك عن السداد . كما يأخذ على بعض العلماء الحديثين إخضاعهم القرآن لكل ما يستجد من نظريات علمية متغيرة ، وهو الحق الخالد الـــذي لا يتغير ولا يتبدل .

وفي الكتاب بعد ذلك كثير من النظرات السديدة ، والآراء القيمة وإن كان لا يخلو من مواضع قليلة يقف عندها القارئ ، وأهمها تشككه في بعض الحديث دون مبرر ، ودون أن يرجع في ذلك إلى مقياس مقبول .

إننا أخيراً نرحب ترحيباً حاراً بهذا الكتاب ونبتهج باتجاه كتابنا الكبار إلى أداء ما علـــيهم مـــن الحـــق للعـــرب والإسلام .

(*) كتبت هذه المقالة في (حضارة الإسلام) سنة **١٣٨٠هـ/١٩٦٠م** أي قبل نحو أربع عشرة سنة ، وكان الـــدكتور طه عندها في السبعين من العمر .